شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله، ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال إذ قال شعراً أو تكلم نثراً (١).

ومن خصائص المدرسة الادبية استعمال المقاييس الفنية في الحكم على الادب ولذلك نجدها مرة تستطيع التعليل ومرة لا تستطيع ذلك، وترجعه إلى الذوق والاحساس الفني. ومن ذلك ان اسلوب كتبها سهل لا يحتاج إلى عناء كبير في فهمه كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الاخرى، وسبب ذلك ان معظم رجالها عاشوا في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتابا. أما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئات أعجمية فغلبت على كتبهم العجمة ولم يكونوا أدباء بل كانوا من الفلاسفة والمتكلمين.

وأسرف رجال المدرسة الادبية في ذكر الشواهد والامثلة، وكانوا يذكرون القاعدة أو التعريف ثم يأتون بالامثلة الكثيرة. ولم تكن الامثلة مقصورة على الجملة أو بيت الشعر وانما تعدتها إلى القطعة الشعرية والرسالة الادبية. ويتضح هذا في جميع كتب المدرسة، فابن المعتز — مثلا — يذكر تعريف الاستعارة أو التجنيس ويورد بعد ذلك امثلة كثيرة ويفرق بين الحسن والرديء. وتبعه البلاغيون الآخرون في هذا المنهج كأبي هلال العسكري في «كتاب الصناعتين» وابن رشيق في «العمدة» وأسامة ابن منقذ في «البديع في نقد الشعر» وابن الاثير في «المثل السائر» و «الجامع الكبير» وابن أبي الاصبع المصري في «تحرير التحبير».

وقد سادت هذه المدرسة في المناطق الوسطى من العالم الاسلامي كالعراق والشام ومصر وشمالي افريقية.

وأهم كتبها التي تضمنت خصائصها كتاب «البديع» لابن المعتز و «كتاب الصناعتين» العسكري و «العمدة» لابن رشيق و «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي و «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني و «البديع في نقد الشعر» لابن منقذ ، و «المثل السائر» و «الجامع الكبير» لابن الاثير و «بديع القرآن» و «تحرير التحبير» ،

(١) المثل السائر ج ١ ص ٢١٠.

لابن أبي الاصبع و «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» لشهاب الدين الحلبي .

هاتان هما المدرستان البلاغيتان، وقد كانت لكل واحدة منهما خصائص عامة ، ولكن هل يمكن وضع فاصل بين الذين اتجهوا اتجاها عقليا والذين نهجوا نهجا ادبيا؟ ليس من الممكن ذلك لان البلاغي الواحد كثيراً ما يمزج بين الطريقتين ويستفيد من الاتجاهين ، فالجاحظ مثلا – وهو رأس فرقة اعتزالية سميت الجاحظية – نراه يميل إلى الفن ويحكم الذوق في كثير من الاحيان، وأبو هلال العسكري مع تأكيده انه لن يتبع طريقة المتكلمين نراه يتجه نحوهم في تقسيماته وتبويبه ويجري في مضمارهم ويخدم اغراضهم. وكان عبد القاهر الجرجاني يميل مرة إلى المدرسة الكلامية في كتابه «دلائل الاعجاز» ويتجه إلى المدرسة الادبية في كتابه «أسرار البلاغة»، وهو في كتابه الاول يجادل جدلاً منطقيا فيكرر اساليب أهل الجدل كقوله : «إن قلتم قلنا...» و «كيف لا يكون الامر كذلك...» و «ما هو إلا كذا وكذا...» وهو في كتابه الثاني أديب يعمد إلى التحليل الفني وابراز ما في الكلام من بلاغة وجمال لانه لا يريد ان يدافع دفاعا عقليا كما دافع عن القرآن في كتابه «دلائل الاعجاز».

وممن جمعوا بين الطريقتين في كتاب واحد يحيى بن حمزة العلوي (– ٧٤٩هـ) صاحب «الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز»، فهو في القسم الاول منه يسير على منهج أدبي واضح فيه التحليل والاكثار من الامثلة ، وهو في القسم الثاني من الكتاب يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف موضوعات البلاغة وعرضها ، وفي الجدل وتقديم الادلة، وقد يكون سبب ذلك انه في هذا القسم تعرّض لاعجاز القرآن، وهو مما يدفع الباحث إلى النظر العقلي وردّ الشبهات بالادلة والبراهين.

هذا ماكان من أمر البلاغة العربية قديما، أما اليوم فان المنهج الحديث يتطلب الاستفادة مما سبق لبناء بلاغة جديدة تعتمد على ذوق العصر وتستند إلى ماظهر من ادب وفنون.